

إسماعيل بن القاسم المعروف بأبي العتاهية

للأستاذ محمد الكفراوي

عبد القاسل ومرى تأثيره على حياته

أوضحنا في مقال السابق مدى تأثير بيئة شاعرنا على شخصيته، وانتهينا إلى أنها قد فرت في نفس الشاعر عدة أمراض نفسية: أهمها التشاؤم والشعور بالضيق والنقمة على الأغنياء، ووجدنا أن فصل القول اليوم في شأن ذلك الحب الفاسل الذي زاد حياة الشاعر تعقيدا وأدى إلى تمكن تلك الأمراض الاجتماعية من نفسه.

وقصة ذلك الحب تبدأ برحلة الشاعر إلى بغداد طالبا للشهرة، فقد كان يرجو أن يصل ذكره إلى سمع الخليفة المهدى عسى أن يوجب به ويستدعيه لإلقاء الشعر بين يديه. ولكن أنى له ذلك وهو شاعر ناشئ مغمور! لقد هداه شيطانه إلى أن يتغنى في إحدى جوارى القصر، راجيا أن يدفعها للفرور وحب للقاء، ور إلى ترديد ذلك الشعر في قصر الخلافة ولفت نظر المهدى إليه.

ونحن لا نشك في أن المصادفات لعبت دورا خطيرا في حياة الشاعر فجعلت بينه وبين جارية مأكرة طموح من جوارى الخليفة، وقد كانت في نفس الوقت تبحث عن مثل ذلك الشاعر الناشئ المغمور لحاجة في نفسها، تلك الحاجة هي التفتي بجمالها وسحرها في شعره، وغايتها من ذلك لا تكاد تخفى على كل من له خبرة بشؤون ذلك العصر. فقد كانت الجوارى إذ ذاك مطمح الأنظار، ويكفي لنا تأكيد تلك الدهوى أن نعرف أن الخيزران زوجة الخليفة المهدى وأم الهادي الرشيد كانت من بين أولئك الجوارى، ولم يقف بها سمد الطالع عند ذلك؛ بل استطاعت أن تجعل من بدأت أختها رأتها زوجات للهادي والرشيد. وأبست الخيزران بفريدة في ذلك الشأن، فقد أقبل الخلفاء على الإماء إقبالا شديدا حتى أن الرشيد قد أنجب من نحو عشر منهن، وناهيك عن لم ينجب

منهن. والدرس الذي يمكن أن نتعلمه الجوارى من مثل تلك الحال غير خفي، فلم يكن يومز إحداهن لكي تصبح سنية أحد الخلفاء أو زوجة إلا أن تلفت نظره إليها بوسيلة من الوسائل. فذا الذي يمنع عتبة والحال كذلك أن تنقبيل بصدر رجب غناء أبي العتاهية وإشادته بذكرها.. وهل هناك وسيلة للفت الأنظار إليها أبسر من شعر الغناء؟

هكذا بدأت علاقة الشاعر بعتبة كل منهما يحاول استقلال صاحبه لمصلحته الخاصة. ولكن العلاقة بينهما لم تقف عند ذلك الحد السادي. فعتبة يسرها وبرضى كبرياءها أن يكون المانم بها المشغوف بمحبها ذا مظهر حسن حيث أن قدرها وخطرها يرتفع بقدر ما يرتفع قدر المذهب في سبيلها.. على حين كان شاعرنا ما يزال فقيرا مغمورا. وقد كان علاج ذلك عندها أن خلعت بالشاعر يوما من الأيام وأبدت اهتمامها بشأنه وتناوله بضع مئات من الدنانير كي يرفع بها مستواه؛ وذلك بشراء ملابس فاخرة وجمار وما إلى ذلك.

وقد كان هذا مبدءا تحول خطير في نظرة الشاعر إلى عتبة؛ فلم تعد ملتته بها نوما من عبث الشباب أو وسيلة إلى تحقيق ربح عادي، ولكن حبا شريفا عميقا فهمي في رأيه ذلك الملك الرحيم الذي لا يبادل حبا بحب وإخلاصا بإخلاص فقط، بل يشفق عليه ويفكر في أمره ويسعى إلى رفع مستواه المادي والأدبي.. فكيف لا يحبها إذن ويسرف في حبه لها! أما عتبة فلا تزال حيث بدأت ولا يزال طرفها متعلقا بالخليفة (١) أو أحد أمراء البيت المالكة، ولا يزال أبو العتاهية في نظرها ذلك الشاعر المغمور الذي لا يجيد شيئا ولا يصلح لشيء إلا التفتي بجمالها والمذهب في سبيلها. وقد انبعت معه سياسة مأكرة ملتوية المراد بها إطالة تمذيبه وهيامه، وذلك بأن تدنيه وتقربه وتمده وتمنيه كلما اشتد به اليأس منها وهزم على نفوذ يده من شأنها.. ثم تمهله وتتغافل عنه كلما اشتد هيامه بها وإلحاحه عليها.. وأشعاره تمثل لنا الحالين. وإذا شئت فاستمع إليه وقد طلبت صراحة أن يتغنى بمحبها حتى

(١) ذمبت صاحبة «Two Queens of Baghdad» للأن الهدي كان يجب عتبة، وليس في الترجمة التي أشارت إليه ما يفيد ذلك. ولكنها أخطأت في فهم العبارة.

تستيقظ في نفسه ، أليس الخليفة أحد أولئك الأمراء القساة
الطغاة بل قائدهم وقدرتهم فيما يفعلون ؟ ألم يتخذ من سلطانه أداة
للمدح والثناء على شاعر يائس طامع لا جريرة له إلا أن أحب فتاة
وأحبته ؟ ألم يلصق به ذلك اللقب البغيض الذي وجد فيه
منافسه من الشعراء مادة خصبة للمعيب به ومن ذلك قول والبة
ابن الحباب : —

كان فينا يكنى أبا إسحق وبها الركب سار في الآفاق
فتدكني معتنها بمناه يالها كنية أنت باتفاق
وإذن فلا سادة ولا استقرار للشاعر ولا للضماء من أمثاله
حتى تبيد تلك الطائفة الطاغية الفسدة التي تتمثل في الخليفة
ومن حوله من سادة وأمراء وقواد

وهكذا كان حبه الفاضل سببا من أسباب تفلنل حقه على
ذرى الجاه والنفوذ في عصره على نحو ما سنبينه بعد
وقد قضى الشاعر بقية أيام المهدي صامتا عن فتية لا يكاد
يذكرها بشئ خروفا من الخليفة . وما كاد الأخير بغضى نحبه حتى
شمر أبو التماهية بالأمن بعد الخوف والفرج بعد الضيق كما
يصوره قوله : —

مات الخليفة أيها الثقلان فكأنني أنطرت في رمضان
وقد ذهب بعض النقاد إلى أن الشاعر إنما يعبر هنا عن أسفه
لموت الخليفة وأنه إنما يشعر بما يشعر به كل من أنظر عمدا في
رمضان .. ولكن هذا في نظرنا تأويل بعيد كما أنه يناقض تلك
الآبيات المشهورة التي قالها أبو التماهية في موت المهدي والتي
يبدو فيها روح الشهامة الوضيعة . قال الشاعر مشبرا إلى جوارى
المهدي : —

رحن في الوشى وأصبحن هالين المرح
كل نطاح من الدهر له يوم نطوح
نح هـ نـك يامسكين إن كنت تنوح
لنوتن وإن مهرت ما مهر نوح
محمد الكرمادى

يلج

بمرقه القاصي والداني :

أعلنت فتية أنني منها على خدر مطل
وشكوت ما أتى إليهم — — — — — والمدامع تسهل
حتى إذا برمت بما أشكو كما يشكو الأقل
قالت فأى الناس به — — — — — لم ما تقول فقلت كل
أو شئت فاستمع إليه إذ يشكو هجرها له :

بجئت على بودها وسفاهها — — — — — ومنحتها ردى وعرض سفاهي
فتخالف الأهواء فيما بيننا — — — — — والوت عقد تخالف الأهواء
فإذا أضفنا إلى ذلك ما بدأت به من إعطائه قدرا عظيما من
المال مظارمة عنايتها به وما انتهت إليه من رفضها الزواج منه
رفضاً يائسا رغم توسط الرشيد .. ازدادنا بغيضا بصحة ما ذهبنا إليه
من أنها لم تكن جادة ولا مخلصة (٢) في حبه له

وقد كان من نتائج ذلك السلوك المضطرب أن ساءت
العلاقة بين الشاعر والمهدي ؟ فقد كان من الضروري امتية أن
تقدم لأبي التماهية سببا معقولا لتردها في أمر الزواج وإدبارها
عنه كما أقبل عليها . ولم يكن من العسير عليها أن تدعى أنها إنما
تفعل ما تفعل خوفا من إثارة غضب الخليفة وزوجه اللذين كانا
بحرصان على بقائها في خدمتهما وإعطاءهما إليها . وازداد الطين
بلة حينما أبرق الخليفة وأرعد على أثر سماعه شعره لأبي التماهية
يمرض فيه بفتية ويقبح الخليفة في أمره :

إلا إن ظيما للخليفة سادنى — — — — — ومال على ظبي الخليفة من عدوى
وما كان من الخليفة إلا أن جلده وسجنه ثم نفاه إلى الكوفة .
بل كاد يقتله بتهمة الردقة لولا أن تدخل يزيد بن منصور خال
المهدي لمودة كانت بينه وبين الشاعر

كان من الطبيعي أن ينقم الشاعر على المهدي (٣) الذي أبغظه
من حمله الجبل على صوت الديايط وهي تلمب ظهره وتقرى جلده .
وهنا أخذت تجارب الشاعر في طافولته وبغضه للسادة والأمراء

(٢) ذهب الأستاذ أحمد براني في كتاب له من أبي التماهية إلى أن
فتية كانت مخمصة في حبه للشاعر وإنما رفضت الزواج منه لكيلا تنضب
سببتها (زوج المهدي) ولبت شمرى لم استنرت على رفضها حتى بعد
موت سببتها ؟